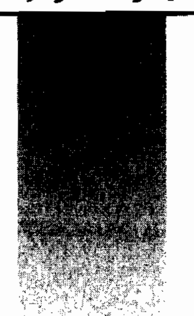


الفلسفة الطبيعية عند الهمداني

د.عبدالكريم قاسم سعيد
قسم الفلسفة، كلية الآداب
والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء

ملخص

يتناول البحث مصادر فلسفة الهمداني (التأثيرات الإسماعيلية- الهمداني وإخوان الصفاء، الهمداني والكندي- المصدر الهرمسي المصدر اليوناني).

كما يتناول البحث الفلسفة الطبيعية عند الهمداني في مبحثين، أولاً: مبادئ الوجود الطبيعي، ويشمل هذا المبحث (موقف الهمداني من نظرية الجوهر الفرد- نظرية الكمون، العدم كجوهر بالعرض). ثانياً: بناء الكون في طبيعيات الهمداني، ويتضمن هذا المبحث: أ- صلة العالم العلوي بالعالم السلفي. ب- عالم ما تحت فلك القمر (كيفية حدوث الموجودات- مراتب الموجودات وخصائصها).

الكلمات المفتاحية: الهمداني، الفلسفة الطبيعية، الكندي، إخوان الصفا.

مقدمة

ولد أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني في مدينة صنعاء في 19صفر 280هـ، وتوفى في مدينة ريدة على الأرجح بين عامي 355هـ- 360هـ.

أطلق المؤرخون على الهمداني لقب (لسان اليمن)، وكاد هذا اللقب أن يطغى على اسمه، وطغى بالفعل على جوانب اشتغالا ته العلمية الموسوعية المتنوعة، وبقى لدى متناوليه محصوراً في زاوية واحدة، هي كونه مؤرخا لليمن يشار إليه من خلال كتابيه (الإكليل)و(صفة جزيرة العرب)، وقد انشغل المؤرخون والدارسون في البحث عن الأجزاء المفقودة من الإكليل دون بذل جهد في البحث عن كتبه الأخرى المفقود وهي الكتب العلمية والفلسفية، التي تشكل الجزء الأكبر من إنتاج الهمداني، ولم يظهر منها إلا كتاب (الجوهرتين العتيقتين) ومقالة واحدة، هي (المقالة العاشرة من سرائر الحكمة)من بين أكثر من ثلاثين مقالة مازالت مفقودة مع كتب أخرى، مثل كتاب الحيوان – الحرث- المسالك والممالك- المطالع والمطارح- اليعسوب- كتاب القوى- وكتاب الأيام، وهذه التي ذكرت في ما وصل إلينا من كتب الهمداني، ولاشك أن لدى هذا الفيلسوف والعالم الموسوعي مؤلفات أخرى لم تذكر.

هذا يرجح أن الآراء الفلسفية والعلمية للحسن الهمداني كانت من الجدة والمغايرة للسياقات الثقافية، فوجدت رفضا شديدا من أئمة المذهب الزيدي والمذاهب الأخرى في اليمن، وبسبب ذلك تعرض الهمداني للسجن من قبل الإمام الناصر إمام الزيدية في صعدة، ثم سجن لفترة تزيد على سنتين من قبل اسعد بن أبي يعفر(الحاكم السني) في صنعاء، وقيل أن اليعفري سجن الهمداني بطلب من الإمام الناصر (الإكليل 289/1)، فما الذي جمع الاثنين على اختلاف مذهبيهما ضد الهمداني؟

لاشك أن للأمر علاقة بآراء الهمداني التي لم تجد قبولا من الطرفين.فهل هي آراءه السياسية، الهادفة إلى بناء دولة يمنية مستقلة عن (المركزية القرشية) ممثلة بالإمامة العلوية في صعدة والخلافة العباسية ممثلة ببني يعفر الذين يحكمون باسمها، ولأن اليعفريين كانوا يحاولون الخروج عن طاعة الخلافة، فآراء الهمداني السياسية توافق هدفهم في الاستقلال.وقد أشاد الهمداني بأحد أمراء بني يعفر ليس لتوافقه مع آرائه السياسية وإنما لقربه من آرائه العلمية

والفلسفية التي لم يرض عنها العلو يون في صعدة وبني يعفر في صنعا غير الذي يصفه بقوله(ومن أحسنهم أدبا وأجملهم مذهبا وأبعدهم بعدة، التبع بن عبد الله(ابن أبي الخير احمد بن يعفر)وله فصاحة في لسانه وبلاغة في قلمه وعلم وبصر بغامض علم النجوم) (الإكليل 289/1).

لقد كانت مشكلة الهمداني مع الوضع الثقافي العام المحافظ في اليمن، لذلك نرى أن الهمداني سجن بسبب آرائه الفلسفية والعلمية، فتعرضت مؤلفاته التي تحمل تلك الآراء للضياع، لاسيما وقد اتهم بالانتماء للإسماعيلية لقربه من أفكارهم الفلسفية مع اختلافه معهم في رفضه نظرية الإمامة- كما سيأتي- وبسبب ضياع معظم مؤلفات الهمداني، يجد الباحث صعوبة في الإحاطة بآرائه في جميع المشكلات الفلسفية على المستويين الميتافيزيقي والفيزيقي، لذلك ستقتصر هذه الدراسة على بحث فلسفته الطبيعية التي يتوفر لبحثها مصدرين غير كافيين، هما (الجوهرتان العتيقتان المائعتان من الصفراء والبيضاء)حول تكوين المعادن من الذهب والفضة، و(المقالة العاشرة من سرائر الحكمة)؛ بالإضافة إلى آراء متناثرة في المتوفر من أجزاء الإكليل، وكتاب صفة جزيرة العرب.

وتعد هذه الدراسة هي الأولى من نوعها حول فلسفة الهمداني بصفة عامة وفلسفته الطبيعية بصفة خاصة.وهي عبارة عن مقدمة لدراسة فلسفة الهمداني لعلها تحرك ألاهتمام بهذا الجانب الهام والأساسي في فكر الهمداني الذي حاز على الكم الأكبر من إنتاجه، فالهمداني، كما سنرى، خير من جمع بين الثقافات الإغريقية والفارسية، والهندية والعربية، وهو جدير بالدراسة كفيلسوف جنبا إلى جنب مع الكندي، والفارابي، وابن سيناء وغيرهم من الفلاسفة العرب والمسلمين.

مصادر فلسفة الهمداني

1. التأثيرات الإسماعيلية

كان من ضمن الاتهامات التي وجهت إلى الهمداني بأنه مناصر للقرامطة و الإسماعيلية، وقد أشيعت هذه التهمه بين الناس كما يقول صاحب (طبقات الزيدية) (توفى سنة 965هـ)وان الناس تعتقد أن الهمداني من الإسماعيلية، ولكنه ليس كذلك وإنما هو من السنة، إلا إن التهمه الإسماعيلية لحقت به، فقد مدح

الراعي القرمطي(الإسماعيلي)منصور اليمن(ابن حوشب) كما يقول مسلم اللحجي في كتاب (أخبار الزيدية)أن ديوانه ممتلئ بمدح هذا الداعية، وديوان الهمداني مثل كثير من مصنفاته مفقود، ويذكر الأب انستاس الكرملي في تحقيقه للجزء الثامن من الإكليل، بان ديوان الهمداني كان قد شرحه ابن خالويه ويقع في ستة أجزاء(عارف، مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية 175) وفيما بين أيدينا من أجزاء كتاب الإكليل التي تم العثور عليها ونشرها يشير الهمداني إلى القرامطة، كما يذكر الداعي الإسماعيلي منصور اليمن (ابن حوشب) بشكل عرضي حيادي بدون مدح أو ذم(الإكليل ج8 ص 75، 95)، على عكس ما تجد عند غيره من المؤرخين الذين تناولوا القرامطة بالذم والتشهير.

عرفت اليمن الدعوة الإسماعيلية عن طريق الداعيين القاسم رستم بن الحسين بن خرج بن حوشب الكوفي الذي عرف بمنصور اليمن، وعلى بن الفضل اليمني الذي أرسلهما إمام الإسماعيلية بسلمية، إلى اليمن لينشرا الدعوة فوصلا إلى اليمن في أوائل سنه(268هـ/881)وقد تمكن الرجلان من نشر الدعوة وجذب الأنصار حتى تكون لديهما جيش كبير استولى على معظم مناطق اليمن وتم بناء أول دوله للقرامطة الإسماعيلية انتهت بوفاة علي ابن الفضل في عام 303م، ثم دخلت الدعوة الإسماعيلية في طور السرية.

وقد أمضى الهمداني الذي ولد عام(280م) حوالي ثلاث وعشرين سنة من عمره في أوج ازدهار الدعوة والدولة الإسماعيلية الأولى في اليمن، وأنجز إنتاجه العلمي والفلسفي في الطور السري للدعوة حيث تفرغ أتباعها للاهتمام بالجوانب الفكرية، والعلمية، و الفلسفية، ولا يمكن أن يفوت الهمداني الاطلاع على فكر الإسماعيلية التي كان لها وجود قوي منافس للتيارات الأخرى ولا يستبعد أن يكون الهمداني استقى معارفه الفلسفية عن طريق الإسماعيلية، لأنها الفرقة الوحيدة التي كانت تهتم بالعلوم الفلسفية في اليمن في حينه، بينما كانت التيارات الأخرى تحارب الفلسفة بشدة.خاصة وأن هناك تقاربا بين الهمداني والإسماعيلية في بعض الآراء الفلسفية وعلم الفلك و الرياضيات بل وهناك إشارة على اطلاع الحسن الهمداني على المصادر الإسماعيلية حيث يذكر (بني نوبخت)ويصفهم أنهم من علماء الإسلام الذين نحو منحى مذهب دورثيوس في موضوع التفسير في علم الفلك(المقالة العاشرة ص27) وبنو نوبخت أسرة

فارسية ظهرت في ألدولة العباسية ونبغ منهم جماعه من العلماء في علم الكلام والفلسفة والنجوم والطبيعيات ولهم في كل ذلك مؤلفات وكانوا يظهرون التشيع (الإسماعيلية).

من جانب آخر هناك أدلة كثيرة وقوية تؤكد على أن الحسن الهمداني يختلف مع المذهب الإسماعيلي، وأبرزها نظريته السياسية التي يخالف فيها الهمداني أهم معتقدات الإسماعيلية. وهي حصر الإمامة في آل البيت، فالهمداني يرفض فكرة الإمامة الشيعية بشكل عام، وبسبب ذلك اتهم بمعاداته لآل البيت وسجن في صعده ثم في صنعاء لأكثر من عامين، واشتهر الهمداني بنزعته اليمنية القحطانية، ومن اجلها ألف كتاب (الإكليل) في انساب وتاريخ اليمن وقصيدته الشهيرة (الدامغه) وشرحها.

2. الهمداني وإخوان الصفاء

على نفس السياق السابق، يشير أحد الباحثين المعاصرين إلى صلة التقارب بين أفكار الحسن الهمداني، ورسائل إخوان الصفاء التي يؤكد الإسماعيليون إنها من تأليف احد أئمتهم وهو الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل(غالب، إخوان الصفا. ص22- 24)، في عهد الخليفة المأمون، نهاية القرن الثاني الهجري، وهناك اتجاه آخر يرى أن رسائل إخوان الصفاء كتبت في القرن الرابع الهجري، ويؤكد صحة هذا الرأي الإشارات الدالة في الرسائل نفسها على الزمن السياسي والثقافي لكتابة الرسائل وهو القرن الرابع الهجري، بل يمكن لنا من خلال تلك الإشارات التاريخية حصر كتابة بعض الرسائل في الفترة الواقعة بين سنة 350 إلى373(سعيد، إخوان الصفا وفلسفتهم في الإلوهية والوجود، ص14) علاوة على أن أقدم ذكر لرسائل أخوان الصفاء في الأدبيات الإسماعيلية يعود إلى القرن السادس الهجري.

وفي الواقع هناك تقارب بين إخوان الصفا والإسماعيلية جعل الإسماعيليين يتخذون من الرسائل برنامجاً تثقيفيا جاهزاً لأتباعهم، لكن هناك نقاط اختلاف بين الإخوان والإسماعيلية، حيث يعمد الإخوان إلى تقويض فكرة الإمامة وعصمة الإمام عند الشيعة كما إن رسائل إخوان الصفاء تحتوي على آراء تخالف مخالفة صريحة أصول المذهب الإسماعيلي في أمور فلسفية كثيرة(نفسه ص31)

أمـا بالنـسبة لعلاقـة الحـسن الهمـداني، بجماعـة إخـوان الـصفاء، فـان الهمداني أقرب إلى منهج و فلسفة إخوان الصفاء في أمور كثيرة فهو كإخوان الصفاء يلتقي مع الإسماعيلية في بعض المصادر والاتجاهات الفلسفية- كما سنبين لاحقاً- لكنه أيضا كالإخوان يختلف مع الإسماعيلية في أمور كثيرة، مثل رفضه لفكرة الإمامة ويقترب من الإخوان في نظريته عن تكوين العالم والقول بتأثير الأفلاك والكواكب على عالم الكون والفساد وعلى معتقدات وأخلاق الناس، واستخدام التنجيم في تعليل الحوادث وغيرها.

لقد عاش الهمداني معظم سني حياته في القرن الرابع الهجري أي في الزمن السياسي والثقافي الذي كتبت فيه رسائل إخوان الصفاء، وكان الهمداني على اتصال بعلماء العراق- المكان الذي وجدت فيه جماعة ألإخوان- ولكن لا نستطيع أن نجزم في ما إذا كان التشابه بين فكر الهمداني وإخوان الصفاء، ناتج عن اطلاع الهمداني على رسائلهم، وما نستطيع تأكيده هو أن الهمداني وإخوان الصفاء، كما الإسماعيلية عاشوا في زمن واحد واستقوا أفكارهم من نفس المصادر الفلسفية والعلمية الرائجة حينذاك.

ليس الهمداني الفيلسوف الوحيد الذي اتهم بالإسماعيلية، فقد اتهم الفارابي وابن سينا بالانتماء للإسماعيلية ولإخوان الصفاء من قبل القدماء والمحدثين.

فالجابري يرى أن هؤلاء جميعاً ينتمون إلى (المدرسة المشرقية) ومن ناحية الأشخاص انتقلت قطبية هذه المدرسة من أبي زيد البلخي (توفى322هـ) وهو من تلامذة الكندي، ثم انتقلت بعد البلخي لأبي الحسن العامري تلميذ البلخي، ثم انتقلت زعامة المدرسة إلى ابن سيناء بعد العامري.

هذا على مستوى الأشخاص، أما على مستوى المذهب فيمكن التأكيد كذلك على إننا هنا أمام اتجاه واحد هو نفسه الذي يجمع الفارابي وابن سيناء وإخوان الصفاء والإسماعيلية، وهو دمج الدين في الفلسفة والفلسفة في الدين على أساس التوظيف الحراني لفكرة الفيض(نحن والتراث، ص194).

لقد كانت الفلسفة المشرقية مزيج من الحكمة الهلنستية، ومن التصورات الدينية الفلسفية لدى بعض شعوب الشرق، وقد عبر الهمداني عن هذا النسق الفلسفي لعصره، بشكل أو بآخر، إلى جانب احتفاظه بأصالته الفلسفية.

3. الهمداني والكندي

كان الهمداني واسع الاطلاع على الفكر الفلسفي العربي الإسلامي ومصادره حتى زمانه وقد كان الكندي أول واهم فيلسوف فريد منذ نشأت هذا الفكر، كما يقول القفطي، الذي عد الكندي الفيلسوف العربي الأول، والهمداني الفيلسوف الثاني.وسنجد بين الفيلسوفين آراء مشتركة، سنشير إليها عند اللزوم.

4. المصدر الهرمسي

هناك اتفاق بين الباحثين على أن مدرسة حران وفلسفتها الدينية الهرمسية مارست تأثيراً واسعاً على الفكر الفلسفي في الإسلام، ولعبت نفس الدور، الذي لعبته الاسرئيليات في التفسير والحديث، لان التراجمة والعلماء الحرانيين نشطوا في نقل العلوم الفلسفية إلى العربية، وقاموا بعمليات توفيق بين تصور القرآن للكون وفلسفتهم الميتافيزيقية(نحن والتراث، ص181)، وقد قبل الفلاسفة والمتصوفة وأهل السنة على العموم التأويلات ذات المصدر الهرمسي الحراني لكثير من الجوانب، واعتبروا(هرمس) نبياً وأعطوه اسم النبي إدريس، كما قبل بذلك الحسن الهمداني الذي يقول إن (أخنوخ:هو إدريس النبي عليه السلام وتسميه الأعاجم هرمس الكبير، ويقول إن اخنوخ أول من خاط الثياب وترك لبس الأدم (الجلد) وهو أول من أبدع الميزان ووضع المكيال... وقيل إنه رفع رفعة الوداع. وقيل:لم يرفع حتى أتقن معرفة الفلك مدة ثم أعيد إلى الأرض فمات فيها ودفن، والذي يعول عليه العلماء أنه ألهم وأوحي إليه علم النجوم، وكشف له عن المقاييس(الإكليل1/86) .

وفي موضع آخر يقول الهمداني (إدريس وأسمه في التوراة أخنوخ وشالت وكان أول نبي بعثه الله وعلمه الحساب والكتابة، فلم يطعه أحد من ولد شيت، واختلطوا بنسل قائن، فرفع الله إليه إدريس كما قال جل ثناؤه(الإكليل1/96) {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} (سورة مريم: آية127).

ومن قول الهمداني عن هرمس أو النبي إدريس نخرج بالملاحظات الآتية:

1. إن هرمس أو إدريس أول شخص تمت على يده تحولات حضارية في تاريخ البشرية، حيث انتقل الإنسان من لبس الجلد إلى لبس الثياب أي الانتقال من الحالة الطبيعية، إلى الحضارة الإنسانية التي تمثلت بصناعة الثياب.

2. أنه أيضا أول نبي بعثه الله وعلمه الحساب والكتابة وأوحى إليه علم النجوم وكشف له المقاييس وهو يعني أن علم الحساب وعلم النجوم وعلم الكتابة علوم إلهيه مع أن الهمداني يورد أقوالا أخرى ترى أن هذه العلوم من إبداع هرمس، لكنه يرجع ليؤكد أن الذي يعول عليه العلماء إنه ألهم وأوحى إليه هذه العلوم، لأن الهمداني كان يحس أن قيام علم التنجيم تفوق قدرة العقل البشري، وهذا ما أحس به بعد ذلك ابن خلدون الذي أنكر قيام هذين العلمين لأن إمكانية قيامهما تفوقت على العقل البشري.

وقد خصص الهمداني فصولا لعرض أفكار هرمس الحكيم في قسمة الأقاليم(صفة جزيرة العرب ص44) وحركة الأفلاك والكواكب (المقالة العاشرة، ص88)

5. المصدر اليوناني

دخل المصدر اليوناني إلى الفلسفة العربية الإسلامية مختلطاً بالأفكار الدينية والغنوصية الشرقية، وعلى نحو انتقائي أيضا بما يتلاءم مع الدين الإسلامي فكان تأثير أفلاطون والأفلاطونية المحدثة في الفلسفة الإسلامية أكثر من أرسطو، لكن الهمداني لم يتأثر بالأفلاطونية المحدثة وكان أقرب إلى أرسطو وقد ورد في ذيل الجزء الثاني من الإكليل رسالة نسبت إلى أرسطو طاليس بعنوان(رسالة أرسطو طاليس الحكيم في معرفة الغالب و المغلوب، الطالب و المطلوب)صنفها أرسطو طاليس للاسكندر اليوناني(المقالة العاشرة، ص127)، ويبين الهمداني انه على دراية جيدة بأفكار أرسطو في الطبيعيات، فيورد لأرسطو أقوالاً صحيحة، ويناقشها فيأخذ بعضها وينقد البعض الآخر ويبين فساده(كتاب الجوهرتين، ص29- 30).

وقد تأثر الهمداني مثله مثل إخوان الصفا والإسماعيلية بالآراء الفيثاغورسية التي أتتهم مختلطة بالتراث الحراني، فيصف الإخوان فيثاغورس بأنه الحكيم الذي هو أول من تكلم عن علم العدد وطبيعته، وأنه كان حكيماً موحداً من أهل حران وكان شديد العناية بالنظر في علم العدد(رسائل إخوان الصفا ج1، ص 145، 164).

أما الهمداني فيعد هرمس أول من تكلم عن علم العدد، والواضح أن لدى الهمداني وإخوان الصفا خلط بين الهرمسية والفيثاغورسية، ويظهر تأثير

الفيثاغورسية على الهمداني في بعض كتاباته حيث يخصص باباً في كتاب الجوهرتين العتيقتين (باب مثالات في صورة الوضع وما يحسن من العدد) (كتاب الجوهرتين، ص73)، ويتحدث عن العلاقة بين الأشكال والأعداد ويرى أن المدور مشبه من الأعداد بالواحد الذي هو قائم بنفسه، وكل عدد إنما أصله الواحد ثم يثنى ويثلث ويربع...الخ) (كتاب الجوهرتين،130)ويتكلم الهمداني عن الصيرورة والأضداد قريباً من افكار هير قليطس(كتاب الجوهرتين،30).

ويذكر آراء عدد من الحكماء، مثل بطليموس الذي اخذ الهمداني كثيرا من آرائه، وانتقد بعضها وصوب بعضها، وطاليس وذوريثيوس(صفة جزيرة العرب، ص50، المقالة العاشرة، ص27، 36، 53).

منهجه

استخدم الهمداني منهج رجال الحديث في الرواية والإسناد(حيث كان للتواتر قوته الأبستمولوجية، في النظام المعرفي) في علوم اللغة والفقه والتاريخ وغيرها، ويظهر هذا المنهج واضحا في كتاب الإكليل، الذي يشير فيه إلى المشكلة المنهجية في علم التاريخ بقوله أن (علم الأخبار(التاريخ) علم طلق غير مقصور بنظام ولا محصور بقياس..فوجدت أكثر الناس يخبط فيه خبط عشواء..وإذا الخبر الواحد ترويه الجماعة في وجوه مختلفة، من زيادة ونقصان وتقديم وتأخير) (الإكليل1/60)وقد مالت به فلسفته الطبيعية نحو الملاحظة والاستقراء إلى معارضة الروايات والأخبار بحجج علمية تجريبية، من ذلك اعتراضه على خبر مفاده أن رجلين دخلا مغارة عميقة ومتعرجة يستضيئان بسراج، قال الهمداني(هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن، لأنهم ذكروا المسلك في المغارة ثم دخولهم منها إلى هوة وأبيات، فقل بها النسيم ويعجز بها التنفس، ويموت فيها السراج، ومن طباع النفس وطباع السراج أن يحيا ما اتصل بالنسيم، فإذا انقطع في مثل هذه المغارات العميقة والخروق المستطيلة لا يثبت فيها روح ولا سراج)(الإكليل8/135).

وعلى ضوء المنهج التجريبي، والبراهين الطبيعية ودقة الملاحظة، وصل الهمداني إلى اكتشافات علمية غير مسبوقة، مثل اكتشاف نظرية الاحتراق

التي دحض بها الخبر السابق، وقد أكد الباحث محمود ألصغيري، أن الهمداني في القرن العاشر الميلادي برهن بشكل حاسم على علاقة الهواء بالاحتراق أولا والتنفس ثانيا، قبل ظهور أي نظرية مماثلة في أوروبا بنحو ثمانية قرون، كذلك أكد ريادة الهمداني في تطور مفهوم الجاذبية الأرضية.(الهمداني، مصادره وآفاقه العلمية، ص33، 52).

وباستخدام المنهج التجريبي، عارض الهمداني الفلاسفة القدماء في العديد من المواضيع المتصلة بالعلوم الطبيعية وفلسفة الطبيعة، حيث يقول على سبيل المثال في رده على رأي القدماء قبل طاليس في الفلك (وأثبتنا من البراهين الطبيعية التي يقوى العقل دونها وينتهي التمييز إليها، ما أدحضت قول الأوائل)(المقالة العاشرة ص27).

وعن طريق المنهج العقلي التجريبي، انتقد الهمداني أرسطو وعارضه في موضوع الحرارة في الأرض، حيث عرض رأي أرسطو وعقب عليه بقوله(قد أحسن الحكيم فيما فرع، وإن كان قد بنا قوله على مبدأ الحرارة على غير أصل، لأنه ذكر أن أصل الحرارة من دؤوب دور الأجرام العلوية، وذلك أن تكون الحرارة متزايدة أبدا، وقد بينا فساد هذا القول فأفردنا له بابا من كتاب سرائر الحكمة)(الجوهرتين، ص30).

وكان الهمداني بهذا المنهج العلمي أكثر عمقا من الفلاسفة المسلمين، الذين بالغوا في تعظيم الفلاسفة اليونانيين، ووضعوهم في مصاف الأنبياء المعصومين من الخطأ، فالفارابي يرى أن الفلاسفة لا يخطئون لأنهم يتواصلون مع العقل الفعال كالأنبياء، ولا يتصور وجود اختلاف بين الفلاسفة، ويتهم من يتصور ذلك بسوء فهم مقاصد الفلاسفة، وقد حاول في كتاب (الجمع بين رأيي الحكيمين.. أفلاطون وارسطو) إثبات رأيه، معتمدا على كتاب لأفلوطين منسوب خطأ لأرسطو، على طريق محاولته للتوفيق بين الدين والفلسفة، وذلك ردا على من يقول، إذا كان الفلاسفة أنفسهم مختلفين، ولا يمكن التوفيق بينهم، فكيف يمكن التوفيق بين الدين والفلسفة؟

أما الهمداني يدافع عن الفلسفة ويعارض خصومها، لكنه لم يضعها نموذجا للحقيقة المطلقة، كما فعل الفارابي، فالهمداني يؤمن بتعدد الطرق

للوصول إلى الحقيقة (العقل والتجربة والعيان والوحي)، وهي طرق متعاضدة تصحح إحداها الأخرى وتكملها، فقد يدرك العقل (بالحساب) ما لا يدركه العيان، وهناك ما لا يدرك بالعقل ولا بالعيان وإنما بالوحي.(المقالة العاشرة، ص92).

أما في تصنيف العلوم، فلا نجد فيما بين أيدينا من مؤلفات الهمداني معالجة لهذا الموضوع، ويمكن القول انه ترسم ما تميزت به الحضارة العربية الإسلامية في تقسيم العلوم والربط بينها وبين الحرف والصناعات والتجارة والحياة اليومية عامة، التي كانت تتطلب تطوير المعرفة التجريبية، وضمنها المناهج والطرق التجريبية في البحث، والتأكيد على الارتباط بالواقع وبالحياة اليومية من خلال إدراج التنجيم والخيمياء في العلوم التطبيقية. (سعدييف، الفلسفة العربية الإسلامية، ص149)

يؤمن الهمداني بالمبدأ العام القائل، بأن الظواهر الأرضية مشروطة على نحو أو آخر بحركة الأجرام السماوية، وعليه يتبع في مؤلفاته منهجا يبدأ ببحث الوحدة الكلية للعالم، ثم ينتقل إلى بحث الظواهر الطبيعية، على سبيل المثال، في كتاب الجوهرتين، يشغل النصف الأول من الكتاب، بالحديث عن ترابط الكون وتأثير الأجرام العلوية على عالم الكون والفساد، وكيفية تكون المعادن بتأثير الأجرام، ثم بعد ذلك يتحدث عن استخراج وصناعة الذهب والفضة بدقة عالم كيمياء متخصص، كذلك ينتقل من علم الفلك إلى الجغرافيا في كتاب (صفة جزيرة العرب)، ليبين أيضا تأثير الفلك على أقاليم الأرض وطبائع السكان، ويزخر كتاب الإكليل بالمصطلحات التي تصف العمران والسدود والزراعة والري، وهي مصطلحات تقنية في عمليات علمية لم يكن الكاتب ليذكرها لو لم يكن ملماً بهذه المسائل إلماماً كافياً، ولو لم تكن هذه العلوم على أهمية ومكانة بين أهل عصره.(الهمداني لسان اليمن، ص122)

ويربط الهمداني بين اشتغاله بالتأليف وبين الحرف والصناعات والحياة اليومية، ففي حديثه عن المال وأهميته في الحياة، يقول الهمداني(المال ثلاثة أموال متباينة الأشكال، أرض وحيوان ونقد، فقد بوبنا عن الأرض كتاب الحرث والحيلة، وعن الحيوان كتاب الإبل، ولم نحب أن نخل بأعظمها خطرا(يقصد الذهب- النقد)(الجوهرتين ص41)، فألف كتاب الجوهرتين.

وفي كتاب الإبل، اختار الهمداني الإبل نموذجا لدراسة الحيوان، لأنه عمل في الجمالة ونقل الحجاج إلى مكة، كما أن الهمداني من أسرة احترف أفرادها أعمال الصياغة والتعدين، واظهر في كتاب الجوهرتين أنه كيميائي محترف، وعالم بالمعادن ومناجم استخراجها في اليمن والجزيرة العربية.

الفلسفة الطبيعية عند الهمداني

أولاً: مبادئ الوجود الطبيعي

1. موقف الهمداني من نظرية الجوهر الفرد

يسلم الهمداني بفكرة خلق العالم كما في القرآن الكريم، حيث يقول في(باب خلق آدم وخبره) (إن أحسن الحديث وأبين القصص كتاب الله تعالى...فخلق الله آدم من طين من أدمة الأرض (ظاهر الأرض)(الإكليل71/1) لقوله عز وجل {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (سورة ص: 71- 72). وفي(باب ما أتى في عمر الدنيا) يذكر الهمداني ما قيل من آراء المحدثين والفلكيين عن عمر الدنيا، منها مذهب أبي معشر في عمر الدنيا انه ثلاثمائة ألف وستون ألفا(الإكليل. ص88) وعلى ذلك يقر الهمداني بحدوث العالم حدوثا زمنيا كما ذهب علماء الكلام الذين استندوا في تصورهم إلى المفاهيم القرآنية عن خلق الله للعالم، لكن الهمداني يخالف المتكلمين في اعتقادهم بنظرية الجوهر الفرد- أو الجزء الذي لا يتجزأ- تلك النظرية التي اتفق معظم المعتزلة والأشاعرة على القول بها مع اختلافات يسيرة وملخصها: أن كل ما في الكون من موجودات يتناهى في التجزئة إلى أجزاء لا تتجزأ..

لقد تبنى المتكلمون النظرية الذرية(نظرية الجوهر الفرد) لإثبات حدوث العالم ونفي قدمه من خلال البرهان على تناهي الموجودات، وتفسير بعض المفاهيم القرآنية عن خلق الله للعالم، والفاعلية المستمرة لله في الكون

وتحكي المؤلفات الكلامية المتأخرة أن المتكلمين متفقون على أن الجزء الذي لا يتجزأ ليس له بحد ذاته شكل، أما تشبيهه بشكل ما، فقد اختلفت آراؤهم فيه، فمنهم من شبهه بالكرة (الدائرة) وآخرون بالمثلث وغيرهم بالمكعب(المربع)، وكانوا

يرون أفضلية الشكل المكعب في انه يمكن تركيب الأجسام منه بدون فرج.(سعديف، الفلسفة العربية الإسلامية، ص95)

من هذه النقطة ينطلق الحسن الهمداني في اختلافه مع نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، حيث يقول:أحسن الاجتماع الكري (الدائري) فالتثليث والتخميس والتسبيع والتثمين وسائر الأشكال لايقيمها على الصحة إلا التدوير، وذلك أن المدور مشبه من الأعداد بالواحد الذي هو قائم بنفسه وكل عدد إنما أصله الواحد ثم يثنى ويثلث ويربع ويضاعف إلى ما لانهاية، ويكسر في نفسه إلى ما لانهاية له، فصار الصدر من الاثنين وهما ضعف الواحد والمثلث من ثلاثة أمثاله والمربع من أضعاف أضعافه والمسدس من أضعاف تثليثه والمثمن من أضعاف تربيعه...الخ)(الجوهرتين، ص130).

يعتمد تصور الهمداني على المذهب الفيثاغوري في طبيعة العدد لتعليل النظام الكوني وهو شبيه بتصور إخوان الصفا، إذ يستدلون من تركيب العدد من الواحد على وحدانية الله سبحانه وتعالى وكيفية إبداعه للعالم ووجود الكثرة عن الواحد، فنسبة الله من الموجودات كنسبة الواحد من العدد (وذلك أن الواحد الذي قبل الاثنين، وان كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه، فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ، كذلك الله عز وجل وان كان هو الذي اخترع الأشياء..فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية، قبل اختراعه وإبداعه لها..وكما أن الواحد لا جزء له ولا مثل له في العدد، فكذلك الله جل ثناؤه لا مثل له في خلقه ولا شبه)(رسائل إخوان الصفا 18/1).

وفي هذا تأكيد وجود الصفات عينها المتضمنة في القرآن الكريم حول الله (الواحد)في العدد نفسه (الواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ولا ينقسم، وكل مالا ينقسم فهو واحد من تلك الجهة التي بها لا ينقسم)(رسائل إخوان الصفا ص88).

أنكر الفلاسفة نظرية الجوهر الفرد، لان الفلاسفة كما يقول الرازي قد برهنوا على إن الجسم مركب من هيولى وصورة، واعتمادا على فكرة الاتصال، فان هذا البرهان مبني على أن الجسم غير مركب من أجزاء لا تتجزأ وإلا لكان اتصال الجسم عبارة عن اجتماعها وانفصاله عبارة عن تفرقها.كذلك أنكر الفلاسفة أن الأجزاء التي لا تنقسم أنها من الجواهر.

ومع معارضة الهمداني للجوهر الفرد إلا إن موقفه من جوهرية الجسم وجوهرية الهيولى والصورة غير واضح، لأنه لا يوجد بين ايديناغير نص واحد عن الجواهر، حيث يرى استناداً إلى ما قاله الحكماء(إن الجواهر المعدنية تتكون من البخارات المختلفة بتقدير العزيز العليم لا من شيء سواها باشتراك الكواكب فيكون لكل كوكب جنسه من ذلك، كالشمس التي الذهب يكون تلألؤه لها وللسعدين ورزانته للمريخ وكثافته وصهبته للقمر.

واختلاف ما يركبه من النقوش والكتاب والتماثيل لعطارد، كذلك حبة الياقوت، الشعاع لكوكب واللون لكوكب والرزانه لكوكب والجسم لكوكب والصلابة لكوكب، ويبس الجنس لكوكب. واطراد الماء لكوكب وصفاء اللون لكوكب)(الجوهرتين، ص28)، في هذا النص نلاحظ القضايا التالية:

1. إن هناك هيولى لكل الجواهر المعدنية هي التبخر أو هي حالة سديمية (هيولى الكل).
2. إن البخارات مختلفة فلكل جوهر معدني هويته البخارية الخاصة به أي هيولى أولى.
3. إن الهيولى الأولى تتقبل الصور والأعراض من الكواكب فتأتلف حولها وكل كوكب يمدها بصفة أو عرض من الأعراض

وهنا نقف عند معنى الجسمية لدى الهمداني، فهل يذهب الهمداني ما ذهب إليه فيما بعد ابن سيناء .فإذا كان أرسطو قد ذهب إلى أن كل موجود مركب من هيولى وصورة، بالإضافة إلى العدم الذي يعد مبدأ بالعرض، فان ابن سينا قد قال بصورة أخرى يسميها أحيانا بالصورة الجسمية وتارة يطلق عليها الصورة الجرمانية وهذه الصورة تختلف عن الصورة التي يسميها أرسطو بالصورة النوعية، أي أن ابن سينا قد ذهب إلى أن لكل جسم طبيعي صورتين، صورة جسمية أو جرمانية وصورة نوعية.ويشير ابن سينا إلى ماهية الصورة الجسمية، فيرى أن الصورة الجسمية من حيث هي جسمية، فهي طبيعة واحدة بسيطة محصلة لا اختلاف فيها ولاتخالف، مجرد صوره جسمية(العراقي، الفلسفة الطبيعية عند ابن سيناء، ص136).

2ـ نظرية الكمون

تهدف نظرية الجوهر الفرد إلى سلب الأجسام الطبيعية خصائصها الذاتية، لإثبات القدرة والفاعلية الإلهية المطلقة في الكون، وذلك لمواجهة الآراء

الطبيعية التي تؤدي إلى القول بأن في الأجسام مقوماً ذاتياً باطنياً يجعلها تفعل من تلقاء ذاتها أو بموجب طبيعتها(تركي، نظريات نشأة الكون، ص175)

في هذه المسالة حمل تصور الحسن الهمداني حلاً توفيقياً لإيجاد توازن بين فاعلية القدرة الإلهية وتأثير القوانين الطبيعية.وهو يرى أن لكل جسم طبيعة خاصة قابلاً بها بالاتصال الطبيعي مؤثرات العالم العلوي(الكواكب)بتقدير من الله، هذا التقدير هو إيجاد العلاقات السببية (كالسابيا إذا قابلت الهواء انفطرت والرانجيل الذي إذا أصابه ضوء القمر انفلق والبيضة إذا لامسها الهواء صلبت، وكانجذاب القمر بقوته للمياه في المد والجزر وقبولها تلك القوة واندفاعها إليها)(الجوهرتين، ص32)

إن الذين أنكروا نظرية الجوهر الفرد، كالهمداني قصدوا تنزيه الله المطلق ليس فقط في ذاته وصفاته وإنما أيضا في فعله الذي ينبغي أن ينزه عن مماثلة الفعل الإنساني، ونظرية الجوهر الفرد تجعل الفعل الإلهي مجرد تأليف الأجزاء، وبشكل مستمر (الخلق المستمر).

لذلك رأى بعض علماء الكلام انه من الأنسب لإظهار القدرة الإلهية وكمال الفعل الإلهي هو أن يقال بأن الله قد خلق الموجودات دفعة واحدة وأنه قد أكمن بعض الموجودات في بعض وأن هذه الكوامن تظهر بالتدريج عندما تتهيأ لها الظروف الملائمة، فهذه الفكرة يمكن أن تعد أكثر دلالة على كمال القدرة الإلهية التي تنفرد بقهر المتضادات على الاجتماع على غير طبعها، وقد سميت هذه النظرية (بنظرية الكمون)، التي تنسب للمفكر المعتزلي (النَّظّام)، وقد أخذ بها الحسن الهمداني، واستند إلى نفس المبررات التي استند إليها النظام من قبل، والاستشهاد بحديث ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (الإكليل 73/1)، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط في ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك وذلك قول الله (وإذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، الست بربكم قالوا بلى)(سورة الأعراف آية 172).

توضح آية الميثاق فكرة الكمون، وقد أثارت الآية جدلا بين بعض مفكري الإسلام، وأدت إلى قول بعضهم بأن الله خلق الأرواح جملة واحدة قبل الأجساد، ثم تتصل هذه الأرواح بالأبدان بعد ذلك، تدريجياً.

3ـ العدم كجوهر بالعرض

يشير الهمداني كغيره من فلاسفة الإسلام إلى (العدم) كمبدأ ثالث للموجود إلى جانب المادة والصورة، ولكنه مبدأ بالعرض وليس بالذات أي ليس مقوما للجوهر الجسماني، ولكنه يرتبط بالجسم من جهة كونه متغيرا مستكملا، إذ أن الجسم من حيث كونه متغيرا يعني انه كان بصفة حاصلة له فبطلت هذه الصفة وحدثت صفة أخرى غيرها، أي انه كانت هناك حالة موجودة للجسم ولكنها عدمت، فمتى بطلت الصورة المقومة للجسم بطل وجدان الجسم(سعيد، إخوان الصفاء ص156).

ويدلل الهمداني على العدم كمبدأ بالعرض، بما نراه في هذا العالم من استحالة أشياء إلى أشياء، فإذا لطف أجزاء الأرض فقد يصير ماء، ويلطف الماء فيصير هواء ويلطف الهواء فيصير ناراً(الجوهرتين، ص28).

وهكذا فإن العدم يعد شرطا في أن يكون الشيء متغيرا ومستكملا، ولو لم يكن هناك عدم لظلت صورة الجسم باقية له على الدوام دون تبدل أو تغير، وكونه مبدأ بالعرض فيعني ذلك انه نهاية صورة وبداية صورة وليس موجودا في الجسم، فهو لا يزيد وجودا على الوجود الذي للهيولى بل يصحبه حين مقايسته للصورة إذا لم تكن موجودة، (د، زينب عفيفي: الفلسفة الطبيعية عند الفارابي، ص112)..

ثانياً: بناء الكون في طبيعيات الهمداني

أ) العالم العلوي (عالم ما فوق فلك القمر)

1. الأفلاك

يسلم الهمداني بمعطيات الفلسفة الطبيعية التي كانت شائعة في عصره، الخاصة ببناء الكون وترتيب الموجودات، ومؤداها أن العالم عبارة عن كرة كبيرة وليس خارج الكرة شيء حيث يقول (إن الله تبارك وتعالى خلق هذا الفلك كرياً محدرجا وجعل الأرض في وسطه كرية محدرجة مثله في وسطه كالمركز، في جوف الدائرة الكبيرة وكل دائرة في دائرة، فإن كل جزء منها من نصف وثلث وربع وسدس متصل بما حاذاه من أجزاء الدائرة الداخلية، وناسبه اتصالا طبيعياً وأن بعد بينهما وقابل له قبولاً شكلياً)(الجوهرتين، ص30).

وبذلك فإن العالم بأسره كرة واحدة، تنفصل إلى طبقات أو آكر، وهذه الأكر محيطة بعضها ببعض كإحاطة طبقات البصل مماس سطح الحاوي بسطح المحوي وليس بينها فراغ ولا خلاء، وعلى هذا الأساس يفسر الهمداني حركة الكون، وهو يرى أن مساحة الفلك وانحلال بعضه ببعض في الحركة، علم عددي ولا في عدد جهل مما أتفق الناس على صوابه، وإنما يجري الهيلاج في كل موضع في الفلك على غير ما يجري في المواضع الأخرى(الجوهرتين ص33)..

ويؤكد الهمداني أن حركة الأفلاك والأجرام العلوية مقدرة بإرادة الله، وقد أشار إلى العلماء الذين تفقدوا مواضع الكواكب في البروج بالعيان فرأوها تخالف بالعيان مواضعها التي ينتهي إليها الحساب، وقد وصل هؤلاء العلماء إلى إمكانية اصطدام الكواكب بعضها ببعض، فقال الهمداني "وعند اجتماعها يدل على فساد العالم ثم الله بعد ذلك أولى أن اجب أن يديم الخراب ويدورها مثل الدوران، فله الخلق والأمر وهو سريع الحساب"،(المقالة العاشرة ص91). إن الهمداني بقوله هذا يؤكد على قدرة الله في خراب العالم بتدخل آخر في سير الكون، لكنه يعتقد أن الكون يمشي بقوانين دقيقة، (حتمية كونية)، ووفق هذه القوانين لا يمكن أن تجتمع الكواكب وتصطدم ببعضها، فالعلماء الذين وصلوا إلى هذه النتيجة حدث لديهم خلل بسبب الآلة التي قاسوا بها، فالقليل من خلل العيان كثير عندما يدركه الحساب(المقالة العاشرة، ص92).

وفيما يتعلق بطبيعة، وصفات الأفلاك والكواكب فهي تتميز بالحركة الدائرية ولا يعتريها الكون والفساد والزيادة والنقصان، إلا أن الأجسام الفلكية مع هذه المزايا ليست مخالفة لأجسام ما دون فلك القمر في كل الصفات.

في (باب قسوم الكواكب من الجواهر) يذكر الهمداني الكواكب مع ما يقابلها من الجواهر، وكمثال على ذلك يقول: لزحل من الجواهر، خبث الحديد والاقليما والفحم والرماد، كذلك المشتري: المختلط من جواهر النار وجوهر الحيل أي الكيمياء و يؤكد الهمداني أن الكواكب ليست من طبيعة واحدة، فلكل كوكب طبيعة مختلفة وتأثير مختلف على الأركان الأربعة(الجوهرتين، ص33،24).

2. صلة العالم العلوي بالعالم السفلي

أما عن صلة العالم العلوي بالعالم السفلي، أي صلة عالم الأفلاك والكواكب وعالم مادون فلك القمر، فإن الهمداني لم يقل بنظرية الفيض مثل

الفارابي وابن سيناء وإخوان الصفاء، ولم يقل مثلهم بالعقول المفارقة التي تتولى تدبير العالم، وإنما قال بالاتصال الطبيعي بين العالمين عن طريق حركة الأفلاك والكواكب التي ينشأ عنها الأركان والمولدات وكل المتغيرات.

إن الهمداني مثل الفيلسوف الكندي يجمع بين القول بفاعلية الله في الكون وبين الفكرة الشائعة في الفلسفة اليونانية عن فاعلية الأفلاك في العالم الأرضي، ويمكن أن يفهم من تسليم الهمداني بفكرة تأثير الأفلاك على العالم الأرضي، أن كل ما يقع في الكون إنما يرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول، بحيث نستطيع من معرفة العلل كالأجرام السماوية أن نعرف المعلول كالحوادث الكائنة الفاسدة ونفهم من ذلك أيضا أن الهمداني يقرر أن فعل الله في العالم إنما هو بوسائط كثيرة، وربما أدى ذلك إلى القول بأن الهمداني قد تابع الفكرة الواردة في كتاب (اثولوجيا) عن صلة الله بالعالم(تركي، نظريات نشأة الكون، ص232)، حيث يميل الهمداني إلى فكرة الخلق باشتراك الكواكب، في (باب تكون الذهب والفضة في معدنهما ونشئهما من العدم).فيقول(قالت الحكماء: إن الجواهر المعدنية تتكون من البخارات المختلفة بتقدير العزيز العليم لا من شيء سواها باشتراك الكواكب، فيكون لكل كوكب جنسه من ذلك، كالشمس التي الذهب يكون تلألؤه لها وللسعدين، ورزانته للمريخ وكثافته وصهبته للقمر، وكذلك حبة الياقوت، الشعاع لكوكب واللون لكوكب والرزانة لكوكب والجسم لكوكب والصلابة لكوكب.....الخ)(الجوهرتين، ص28).

إن فعل الله سبحانه وتعالى في الخلق كما يرى الهمداني هو التقدير وهنا يجدرينا توضيح مفهوم الخلق في اللغة وفي الاصطلاح الفلسفي الإسلامي.

فقد جاء مصطلح الخلق في اللغة، ليدل على معنى "التقدير"، و(ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه"، و"الإنشاء على مثال إبداعه"، و"خلق الله الشيء، يخلقه خلقا، أحدثه بعد أن لم يكن"(أبن منظور: لسان العرب، مادة (الخلق).

وفي الاصطلاح "الخلق هو اسم مشترك، فقد يقال: خلق لإفادة وجود كيف كان، وقد يقال لإفادة وجود حاصل عن مادة وصورة كيف كان، وقد يقال خلق لهذا المعنى الثاني، بعد أن يكون لم يتقدمه وجود بالقوة كتلازم المادة والصورة في الوجود"(الغزالي، رسالة الحدود، ص294)، والخلق يقال في أكثر الأحوال في إيجاد الشيء من الشيء قبله كخلق الإنسان من التراب ويقتضي تركيبا، وفي

تعريفات الجرجاني"الإبداع هو إيجاد الشيء من لا شيء، والخلق إيجاد شيء من شيء قال تعالى: (بديع السماوات والأرض)، وقال (خلق الإنسان)، ولم يقل "بديع الإنسان"(الجرجاني، التعريفات، ص7).

والخلق في اصطلاح إخوان الصفاء "هو تقدير كل شيء من شيء آخر" (رسائل إخوان الصفا 117/3)، وفي موضع آخر يقول الإخوان "الخلق إيجاد الشيء من شيء آخر".

والفيلسوف الحسن الهمداني يقترب من تعريف الإخوان، وهناك فرق بين التقدير والإيجاد، فالتقدير في التعريف الأول للإخوان مرتبط بالفعل الأول المباشر لله سبحانه وتعالى وهو الإبداع، فالله في إبداعه الأول قدر وجود شيء من شيء آخر تقديراً، أما الإيجاد في التعريف الثاني لإخوان الصفاء فهو مرتبط بالفعل غير المباشر لله سبحانه وتعالى، وهو خلق الأمور الطبيعية التي أحدثت وأبدعت بالتدريج على ممر الدهور والأزمان.

والهمداني كإخوان الصفاء يرون أن الله سبحانه وتعالى لا يباشر الأجسام بذاته ولا يتولى الأفعال بنفسه إلا الاختراع والإبداع (أي التقدير فحسب)، وأما التأليف والتركيب والصنائع والأفعال والحركات التي تكون بالآلات والأدوات في الأماكن والأزمان، وإنما يأمر ملائكته الموكلين وعباده المؤيدين بأن يفعلوا ما يؤمرون.

وإخوان الصفاء يعتبرون الكواكب والأجرام من الملائكة الموكلين بتدبير العالم، بينما لا يعتبرها الهمداني من الملائكة، وإنما كائنات طبيعية لها فاعلية في الكائنات السفلية، وبذلك يحاول التوفيق بين الدين والفلسفة، فالله سبحانه وتعالى في كل الأحوال هو العلة المباشرة أو غير المباشرة لكل ما يقع في الكون. فيعتقد بتأثير الكواكب والأفلاك على الكائنات في هذا العالم فالجواهر المعدنية تتكون من البخارات بتقدير العزيز العليم باشتراك الكواكب.

وهذا رأي صريح وواضح بان الكواكب هي عبارة عن وسائط لخلق الله للموجودات في عالم الكون والفساد، فتأثير الموجودات الأعلى على الأدنى، تأثير حركة وإيجاد. ويؤمن الهمداني بتأثير إحكام النجوم فيما يصيب الإنسان في حياته من خير وشر، بل أنه ينقل عن بطليموس أن الأفلاك والكواكب تشكل طبائع أهل العمران وأخلاقهم ومعتقداتهم بحسب الموقع الفلكي لبلدانهم، يقول

الهمداني"ومصداق ذلك مسألة بني إسرائيل حين سألوا موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة وأن يجعل لهم إله يعبدونه لما رأوا أصحاب الأوثان في كثير من هذا، قال بطليموس وهم غاشون ذوو خفة وطيش مع نجدة فيهم وهم أهل يسار وغنى، وأما من كان من بلاد فونيقي يريد اليمن، وبلاد تدمر وأصحاب البراري، يريد مهرة، فهم يشاكلون الأسد والشمس، ولذلك صاروا سليمي الصدور، رحماء القلوب محبين لعلم النجوم، يعظمون الشمس خاصة من جميع النجوم ويسجدون لها" (صفة جزيرة العرب، ص73).

ويتخذ الهمداني من مدينة صنعاء التي ولد ونشأ وتعلم فيها نموذجا لرصد تأثير الأفلاك والكواكب على البشر، واعتبر ما يحدث في أيام صنعاء وفي أهلها مثلاً لعموم غيرها.حيث يفسر تدين أهل صنعاء وأخلاقهم ونمط عيشهم من خلال تأثير الأفلاك والكواكب بقوله"وتوجد طبائع الزهرة والمريخ في طبائعهم لا سيما الزهرة لأنها تستولي على الطالع بأكثر الحصص ويظهر ذلك فيهم وفي الكورة، وأما ما يظهر فيهم فالتأله والعبادة والأمانة وحسن الطرايق وسعة الأخلاق وسلامة الصدر والعلم والنعيم واللباس ورفاهية العيش ولينه، وأما الذي يشترك في مواليدهم المريخ من أهلها فيكون من شانهم العشق والزنا واللهو والطرب والغناء والمجون والعرابد وغير ذلك _ويعلل الهمداني- نكبات صنعاء بنحس الزهرة، فيقول نحست الزهرة من المريخ في سنة ثمان وثمانين ومائتين فقتل من أهل صنعاء يوم الجمعة ببيت بوس خمسمائة نفر"(الإكليل 34/8)، وكانت المعركة بين الأمام الهادي يحيى بن الحسين وبين الملك أبي حسان أسعد بن أبي يعفر الحوالي.

وعندما ناقش الحسن الهمداني اختلاف أقاويل الحكماء وعلماء الفلك حول حساب اقتران الكواكب، بيّن الهمداني صحة أو خطأ هذا الرأي أو ذاك على ضوء تجربته الشخصية وما حدث له من تأثير النجوم في حياته من سعد ونحس، منذ ولادته مؤكدا على فكرة تدبير الكواكب للإنسان في كل مراحل حياته، حيث ينتقل التدبير من كوكب إلى آخر في كل مرحلة على حدة.

وهكذا يعلل الهمداني شدة ميله إلى النساء والتزين لهن عندما تولى تدبيره عطارد وعندما انقضى التدبير من عطارد إلى المشتري انفتح له باب من المنطق واتسعت بسطته في العلم، فلما صارت القسمة إلى الزهرة أزداد في المنطق وأوسع في العلم ووسم في العلم وأفاد منه في فنون كثيرة وعرض جاهه، ومن هذه

القسمة اتصل جزء الطالع بنور سوسة المريخ، فأثار عليه السلطان والرعية وسطا عليه الغوغاء والسفلة بالكلام، فكانت عواقب هذه النكبة إلى جاه عريض(المقالة العاشرة ص107- 110) هكذا يفسر الهمداني حياة الإنسان وحركة التاريخ بالحتمية الطبيعية، التي يمكن تفادي كوارثها والاستفادة من سعودها والتنبؤ بالحوادث وتسييرها لصالح الإنسان من خلال علم النجوم.لقد أستقى الهمداني آراءه في معتقدات البشر وسعادات الكائنات ومناحسها بتأثير الكواكب والأفلاك من المصدر الهر مسي الذي طغى بتأثيره على الفلسفة العربية الإسلامية المشرقية.

كان الهمداني يؤمن بالحتمية الطبيعية، والترابط العلي في الكون، ويرى أن معرفة الإنسان للقوانين الطبيعية، التي قدرها الله، عن طريق علم حساب النجوم، يستطيع أن يعرف الحوادث قبل وقوعها. وإلى ذلك يعتقد أن الطوفان، حدث بفعل هذه القوانين المقدرة في علم الله السابق، ولم يحدث بأمر آني، حيث يقول"فأخبر الله، نوحا خبر الطوفان أنه يكون إلى ثلاثين ومائتي سنة، فأمره أن يصنع السفينة التي نجاه الله وأهل بيته بها" (الإكليل 96/1- 97)، ويؤكد ذلك بقوله"وكان شالت (اسم النبي إدريس في التوراة) يحسب بالنجوم فرأى في حسابه أن الأرض ستغرق ومن عليها، وذلك قول الله تعالى {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (سورة الروم، الآية:7) فدعا شالت متشولح ولمكا ونوحا:فقال أي بني، قد علمت أن الله يعذب هذه الأمة التي ليس فيها رحمة"(الإكليل 96/1)

ب) عالم ما تحت فلك القمر(عالم الكون والفساد)

1. كيفية حدوث الموجودات

يفسر الهمداني حركة الطبيعة وحدوث الأشياء، من خلال تشخيص العلاقة بين الفلك وعالم الكون والفساد، فيقرر أن حدوث الأشياء نتيجة لحركة الفلك وشكله الكري، فلما خلق الله تبارك وتعالى الفلك كريا محدرجا، وجعل الأرض في وسطه كرية محدرجة،كالمركز في جوف الدائرة الكبيرة، وكل دائرة في دائرة، فإن كل جزء منها، من نصف وثلث وربع وسدس متصل بما حاذاه من أجزاء الدائرة الداخلية، وناسبه اتصالا طبيعيا..فلما قسم بمنطقة الفلك بهذه القسمة، انفصل الفلك بأربعة أرباع، فصارت رأس الحمل إلى السرطان فصلا حارا لينا، فحرارته لصعوده وتزايد النهار وزيادة قوة الشمس، ورطوبته بأنه يتلو فصلا باردا رطبا صاعدا تولد منه ركن من الأركان وهو الهواء وهو حار رطب وشابه من طبائع الحيوان الدم.

وصار من رأس السرطان إلى رأس الميزان فصلا حارا يابسا، لنقصانه من أنه يتلوا فصلا حارا صاعدا ويبوسته من أن كل حرارة تضعف فهي تزداد يبسا، فتولد منه ركن من الأركان وهو النار، وشاكله من طبائع الحيوان الصفراء.

وصار من رأس الميزان إلى رأس الجدي فصلا باردا يابسا، لنقصان النهار فيه وزيادة الليل وأنه قابل ربع الربيع الحار الرطب فصار ضده بالمقابل باردا يابسا..وكذا طبع المقابلة مجبول على الضدية.. وشاكل طباع الأرض، ومن طباع الحيوان السوداء.

وسار من رأس الجدي إلى رأس الحمل فصلا باردا رطبا، لأنه ضاد فصل الصيف الحار اليابس فصار رطبا باردا، فيتولد منه الركن الرابع وهو الماء، ويشابه من طبائع الحيوان البلغم(الجوهرتين، ص30- 32)

2. مراتب الموجودات وخصائصها

إذن تتولد أشياء عالم ما تحت فلك القمر مترتبة عن الحركة الدائرية للفلك، التي تولد الفصول الأربعة، ومن الفصول تتولد الطبائع الأربع، التي يتولد منها الأركان الأربعة، ومنها تتكون الموجودات الكائنة الفاسدة.

أ- الطبائع الأولى: هي الكيفيات المكونة لماهية العناصر بحيث لو انعدمت كيفية الشيء لم يعد هو هو، فالنار بفقدانها الحرارة لا تكون نارا، وهذه الكيفيات لا تزول ولا تتقوم بغيرها، كما أنها لا تفسد، وما يحدث هو أن تتغلب كيفية على أخرى، كأن تتغلب الليونة على اليبوسة أو الحرارة على الرطوبة، فينسب الشيء إلى الكيفية الغالبة، بحيث تنشأ الأجسام البسيطة نتيجة لالتقاء الكيفيات ألأربع الأولى اثنتين اثنتين.

فالنار حرارة ويبوسة، والهواء حرارة ورطوبة والماء برودة ورطوبة، والأرض برودة ويبوسة.

ب- الأركان الأربعة: وهي الماء والهواء والنار والأرض، وهذه العناصر هيولاها شيء واحد وهو الجسم ولكن صورها مختلفة، فلكل منها صورتها المقومة التي تميزها عن الأخرى، وهذه البسائط التي هي أصول الكون والفساد، يستحيل بعضها إلى بعض، فإذا لطف بعض أجزاء الأرض فقد يصير ماء، ويلطف الماء فيصير هواء ويلطف الهواء فيصير نارا.

وقد تغلظ النار فتصير هواء ويغلظ الهواء فيستحيل ماء ويغلظ الماء فيستحيل حجرا أو أرضا، والاستحالة من أعلى هي الأصل.(الجوهرتين، ص29) أي الأصل هي الاستحالة بالتدريج من النار إلى الهواء إلى الماء إلى الأرض، فهذه العناصر مرتبة من الأعلى إلى الأسفل حسب الحركة والخفة.

ولعل نظرة الهمداني لحركة الأركان الأربعة، جعلته يكسب قصب السبق، في آرائه عن انتقال الصوت، والجاذبية الأرضية، فالفلاسفة بشكل عام قبله، يقولون بحركة العناصر الأربعة حركة مستقيمة إما إلى الأعلى أو إلى الأسفل، فالنار والهواء يتحركان إلى الأعلى، والماء والأرض يتحركان إلى الأسفل. أما الهمداني فيختلف إلى حد ما عنهم، فهو يرى، أن ثلاثة من الأربعة الأركان متحركة إلى ثلاث جهات، فالنار إلى فوق والهواء متموج يمنة ويسره على وجه الأرض والماء يتحرك ويسير إلى أسفل والأرض واقفة راكدة، (الجوهرتين، ص33) ولذلك اكتشف انتقال الصوت عبر موجات الهواء، وهو يوافق أرسطو في قوله بثبات الأرض وسكونها في مركز الكون، لكن الهمداني يضيف جديدا حول الجاذبية الأرضية، استنادا إلى تفاوت قبول الأركان الأربعة تأثير الأجرام السماوية حسب حركة الأركان، ولما كانت الأرض واقفة راكدة كانت أكثر من الثلاثة قبولاً، وكان تأثير الأجرام العلوية والعناصر السماوية فيها أكثر، وكانت على ما فاتها من الأجسام أغلب وأشد جذباً من الهواء والماء في كل جهاتها، فهي بمنزلة "حجر المغناطيس الذي تجذب قواه الحديد إلى كل جانب".(الجوهرتين، ص33)

ويرى الهمداني، أن الأجرام العلوية تفعل طبيعة كل واحد منها على قدر الإنفراد فعلا من الأفعال في كلية الأركان، وفي أجزائها، ويقبل كل ركن وكل جزء من أجزائه قوى طبائعها، قبولا مختلفا، على قدر ما في طبيعة كل ركن وكل جزء من تلك الطبيعة من القبول كجميع ما يقبل النار كالحراق يقبل القادحة، ثم الكرسفة التي تقبل شعلة السراج عن بعد عن محاذاته الكبريت والنفط، ويقبل الماء النار عن حاجز، وتقبل النار الهواء وتقوى بها لا تصالهما ولا تبقي في موضع لاهواء فيه.(الجوهرتين، ص38)

ج- المولدات: وهي الكائنات الفاسدات، ويقسمها الهمداني إلى قسمين، حيث يقول، وأما ما كان من التأثير والكون والفساد على وجه الأرض ففي الحيوان والنبات والأبنية والماء، وأما ما كان من التأثير فوق وجه الأرض متعالٰيا

عليها فهو يقع في الهواء مثل النيران التي تحدث في الهواء من الأعمدة والنيازك والذوائب وشهب الرمي وغير ذلك.

أما المعادن، فيعارض الهمداني المذهب القائل بأنها تنبت في أعماق الأرض عن العناصر الأربعة، ويعتقد أنها تتكون من البخارات المختلفة، بتقدير العزيز العليم، لا من شيء سواها، باشتراك الكواكب، فاللون لكوكب والرزانة لكوكب والجسم لكوكب والصلابة لكوكب...الخ.والدليل على أن تكوين الجواهر من البخارات المختلفة ما نراه في هذا العالم من استحالة أشياء إلى أشياء وصلاح أشياء بأشياء وفساد أشياء بأشياء.(الجوهرتين، ص38)، وهنا يؤكد الحسن الهمداني مذهبه في اختلاف مكونات الجواهر بدليل الاستحالة والكون والفساد، ليدحض نظرية الجزء الذي لا يتجزأ (الجوهر الفرد)، التي تفسر الكون والفساد عن طريق اجتماع الذرات وافتراقها.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

1. كتاب الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء، إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبي مطبعة دار الكتاب. دمشق، 1982م.
2. المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، نسخة وعلق عليه. محمد بن علي الأكوع.
3. الإكليل، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004م.
4. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1990م.

ثانياً: المراجع

1. تركي (د. إبراهيم محمد) نظريات نشأة الكون في الفكر الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية-مصر 2001م.
2. الجابري (د. محمد عابد): نحن والتراث، دار الفارابي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1983م.
3. الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد بن علي): التعريفات، الدار التونسية، تونس 1971م.
4. وسائل إخوان الصفا، تحقيق د. عارف تامر، منشورات عوايدات، بيروت 2000م.
5. سعد بيف (ارثور) وتوفيق سلوم: الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، 2000م.
6. سعيد (د. عبدالكريم قاسم): إخوان الصفا وفلسفتهم في الألوهية والوجود، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.
7. صغيري (محمود إبراهيم): الهمداني، مصادره وآفاقه العلمية. مركز الدراسات والبحوث اليمني-صنعاء.
8. عارف (د. أحمد عبدالله): مقدمة في دراسات الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن بين القرنين الثالث والخامس الهجري، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت1991م.
9. العراقي (د. محمد عاطف): الفلسفة الطبيعية عند ابن سيناء، دار المعارف بمصر.
10. عفيفي (د. زينب): الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية-مصر 2002م.
11. غالب (د. مصطفى): إخوان الصفا، دار مكتبة الهلال، بيروت1982م.
12. الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد): رسالة الحدود في كتاب معيار العلم. تقديم وتعليق سليمان دينا، دار المعارف بمصر 1969م.
13. الهمداني لسان اليمن، دراسات في ذكراه الألفية، تحقيق د. يوسف محمد عبدالله، جامعة صنعاء، 1986م.